

أنواع الخطابة

أصول الدعوة

إعداد / محمد الجوهري

قسم الدعوة وأصول الدين

كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية

شاه علم - ماليزيا

waleed.eltantawy@mediu.edu.my

خلاصة— هذا البحث يبحث في أنواع الخطابة.

الكلمات الافتتاحية: الخطابة، النوع.

I. المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد أخي الطالب، سلام من الله عليك ورحمة منه وبركات، ومرحباً بك في سلسلة الدروس المقررة عليك في إطار مادة أصول الدعوة، لهذا الفصل الدراسي، آملي أن تجد فيها كل المتعة والفائدة، وفي هذا درس نتعرف على أنواع الخطابة.

II. موضوع المقالة

أنواع الخطابة:

نأتي الآن إلى الحديث عن أنواع الخطابة، ونبدأ بتقسيم أرسطو للخطابة، فقد قسم أرسطو الخطابة لثلاثة أقسام؛ لأن العناصر المكونة لكل خطبة ثلاثة: الخطيب، والموضوع، والسامع، والغاية في الخطابة تتعلق بغرضها الأخير - أي: السامع- ولأن المستمعين ثلاثة فالسامع إما أن يكون قاضياً، وإما أن يكون مستمعاً عادياً، كذلك القاضي إما أن يقضي فيما يتعلق بالماضي، أو فيما يتعلق بالمستقبل، فمن يقضي في مسائل ماضية فهو القاضي، ومن يقضي في مسائل آتية فهو عضو المجامع العامة، ومن يحكم على مقدرة الخطيب فهو المستمع العادي، فأنواع الخطابة إذن ثلاثة: الخطابة الاستشارية أو الحمليّة، ثانياً: الخطابة القضائية، ثالثاً: الخطابة الاستدلالية - أي: خطب المدح والذم- ولكل نوع منها اتجاه خاص.

أولاً: ففي الخطابة الاستشارية يتوجه الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو بالتحذير، والغاية من نصحه وتحذيره بيان النفع والضرر؛ لأن الناصح يعرض ما يتقدم به على أنه الأصلح، والمحذر يعرض ما يرى فيه الضرر كله، وما وراء النفع والضرر من شتى الاعتبارات كالعدل والظلم، والحسن والقبح مرده إلى هذين الغرضين.

ثانياً: وفي الخطابة القضائية يتوجه الخطيب إلى الاتهام أو إلى الدفاع، ومهمة المتقاضين لا تخرج عن هذين؛ لأنهم يهدفون إلى العدل أو الجور، وعليهما يحمل كل ما يقال. وثالثاً: في الخطابة الاستدلالية يتوجه الخطيب إلى المدح أو إلى الذم، وهدفه الحسنة والقبح الخلفيان، وبإيهما ترجع الأمور المتعلقة بهما.

وتجد أن أرسطو قسم الخطابة إلى ثلاثة أقسام مراعيًا للزمن من الخطبة، وهي: أولاً: الاستشارية أو الحمليّة، وهي التي يقصد بها إثبات شيء أو نفيه، وذلك بالاستشارات، وبمعادلة الآراء، وحمل السامعين على الاقتناع بما يدعو إليه الخطيب، أو الحمل على الخصيم بدحض رأيه وتفنيد حججه، ومنها الخطب البرلمانية، وهي تتناول شؤون الدولة العامة من حرب وسلم وتشريع واقتصاد، والخطابة الاستشارية متعلقة بالزمن المستقبل؛ لأن الخطيب يريد حمل السامعين على فكرة أو إبعادهم عن فكرة كتنفيذ الحكومة أو لومها، وفرض ضريبة أو إغائها، وهذا مرتبط بالزمن المستقبل لا بالماضي. ثانياً: القضائية، وهي التي يدافع الخطيب عن متهم ليرثه بوسائل شتى بعضها معتمد على وقائع معينة، وبعضها مستنتج من أحداث، وبعضها يشرح الظروف التي أحاطت بالمتهم فحمله على الجريمة، ممّ يتلمسه المدافع عنه للاعتذار عنه وتبرير مسلكه، وهي متعلقة بالزمن الماضي؛ لأن موضوعها جريمة حدثت، أو تهمة لصقت وانتهى زمنها.

ثالثاً: الاستدلالية، وهي خطب المدح والذم لإنسان أو شيء، وهي مبنية على الزمن الحاضر؛ لأن المدح أو الذم يتناول شخصاً أو شيئاً حاضراً أمامه.

نأتي الآن إلى مناقشة هذا التقسيم الذي قسمه أرسطو، فنقول: ليس هذا التقسيم دقيقاً؛ لأن الزمن يتداخل بعضه في بعض، فمثلاً الخطابة الحمليّة وهي مبنية في نظر أرسطو على الزمن المستقبل كثيراً مما تتناول الماضي والحاضر، والخطابة الاستدلالية وهي مؤسسة في رأيه على الزمن الحاضر كثيراً ما تتعلق بالزمن الغابر، كأن يعرض الخطيب إلى حياة المكرّم أو الموبن ليستخلص منها وقائع تدل على العظمة، ثم إن الخطيب الماهر من يتخذ هذا الضرب من الخطابة وسيلةً لتحبيب البطولة إلى جميع المستمعين، وترغيبهم في الخير والحق، وهذا متعلق بالمستقبل، وكذلك الخطابة القضائية المرتبطة

بالزمن الماضي في نظر أرسطو قد تنجر إلى المستقبل كالثقة بعدالة القضاة، والنفرة من الجريمة، وكثيراً ما تتداخل الأقسام كأن يلجا المحامي وخطبته قضائية إلى الاعتماد على أمور سياسية، ويعتمد الخطيب السياسي على أمور قضائية.

وقد أحس أرسطو نفسه أن الأقسام متداخلة، وقرر ذلك في قوله: "كذلك الذين يهدفون إلى المدح أو الذم لا يبحثون فيما إذا كان لا يصدر عن ممدوحهم أو مذمومهم يعود بالنفع أو بالضرر؛ لأن غايتهم الحسن والقبح، وكثيراً ما يجدونه ويتشون عليه؛ لأنه احتقر منفعة خاصة في سبيل الاستجابة لعمل من الأعمال الحسنة".

ثم إن تقسيم الخطابة على أساس الغاية منها غير صحيح أيضاً؛ لأن أرسطو يرى أن الغرض من الخطبة الاستشارية بيان النفع والضرر، ومن القضائية تقرير العدل ورفع الجور، ومن الاستدلالية معرفة الحسن والقبح، وهذه أغراض متداخلة، فإن العدل حسن، والجور قبيح، وفي الإشادة بفضائل المكرّم نفع للشعب كله، ودعوة ضمنية إلى الاقتداء بالمثّل العالية، وهكذا تتداخل الغايات من الخطب.

أما التقسيم الحديث، فهو تقسيم لا يبني فيه المحدثون تقسيم الخطابة على الزمن، ولا على الغرض من الخطبة كما فعل أرسطو؛ لأن الخطبة تستمد نوعها من ظروفها، ومن اتجاه الخطيب نفسه، فالخطبة التي تلقى في المجامع في شأن من شؤون الدولة العامة خطبة سياسية، والتي تلقى في المحاكم قضائية، والتي تلقى في المجامع للتكريم أو التأيين هي خطبة المدح، فإذا كانت لإصلاح حال المجتمع فهي اجتماعية، على أن أرسطو أهمل نوعين آخرين من الخطابة هما: الخطابة الدينية، والخطابة الحربية، ولا نستطيع أن ندمج الخطابة الدينية أو الحربية في نوع من الأنواع الثلاثة السابقة إلا بتعسف؛ لأن لكلّ منها طابعاً خاصاً غير طابع الأنواع السابقة، وغرضاً خاصاً غير الأغراض السابقة.

فالتقسيم الحديث للخطابة تقسيم طبيعي يستند إلى موضوع الخطبة، ويعتمد على توجيه الخطيب نفسه، وهي على هذا تنقسم إلى سياسية، وقضائية، وحربية، وحقلية، ودينية، على أن بعضها قد يتداخل، فمثلاً قد يخطب الخطيب في تكريم شخص فيتناول مسائل سياسية، أو يخطب في ساحة القضاء فيتعرض لمسائل علمية، ولكن هذا لا يخرج الخطبة عن أن تُسمى باسمها الأصيل، ولا يبعدها عن نوعها وطبيعتها.

ونأتي الآن إلى الحديث عن كل نوع من هذه الأنواع المتعددة للخطابة، فننحدث عن الخطابة السياسية، ونبدأ بتعريفها فنقول: هي التي تدور حول الشئ ون العامة للدولة فتشمل الخطب التي تلقى في البرلمان، وفي المجتمعات الانتخابية، والأندية الحزبية، والمؤتمرات الدولية السياسية، سواء تعلقت بأمور خارجية كالمعاهدات، والحرب، والسلام، أو بأمور داخلية كالتعليم، والاقتصاد، والزراعة، والتشريع، ونظام الحكم.

ثم نأتي الآن للحديث عن عوامل ازدهارها، فنقول: هذا النوع من الخطابة يزدهر في الدولة الدستورية؛ لأنه وليد الحرية، وقد بدأ عند اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد؛ إذ كان الحكم جمهورياً للشعب فيه القيادة والتوجيه، فارتبطت السلطة الحاكمة برضا الشعب وتأييده، واعتمد ط لاب الحكم على استرضاء الشعب وإقناعه، وكانت الخطابة وسيلتهم إلى ذلك، ثم ارتقت عند الرومان في الجمهورية الديمقراطية؛ إذ كانت شؤون الدولة تناقش في حرية بمجلس الشيوخ وبالمجتمعات الشعبية، والحق أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان كانت أعظم مشجع على ازدهار الخطابة السياسية؛ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال بالشعب، ولأن المهن التي تشغل الناس في أيامنا هذه وتستنفذ جهودهم كالصناعات والطب، كانت عند اليونان والرومان من أعمال الأرقاء؛ أما الأحرار فقد كان هدفهم الوصول إلى الوظائف العامة، والمشاركة في الحكم.

وفي العصر الحديث عظم شأن الخطابة في الحكومات الديمقراطية النيابية كإنجلترا، وفرنسا، ومصر، والعصر الحديث عصر الخطابة السياسية لكثرة الأحزاب المختلفة في وسائلها وغاياتها، المعتمدة على الخطابة في إقناع الجماهير بصواب الحزب، وابتغائه الخير للأمة، وفي استمالتها إلى ن صرة الحزب وتأييده، وفي تنفيذ برامج الأحزاب الأخرى، وانتقاص أعمالها، ثم لقوة اتصال الأمم، فقد أُنعت وسائل الاتصال المسافات، وربطت العالم ربطاً تتجم عنه مشكلات دولية ومؤتمرات لدراستها وحلها، والمؤتمرون يتسلطون بالخطابة وتأثيرها، ثم لانتشار الحكومات الديمقراطية والمجالس النيابية، وفيها يتصاول الخطباء، ثم لبقظة بعض الشعوب التي كانت في سبات، وتطلعها إلى حياة راقية كريمة على أن الوعي القومي نضج عند بعض الأمم، وكاد ينضج في بعضها، وهذا من شأنه أن يوظف الناس إلى حقوقهم فتزدهر الخطابة، وهذا النوع وثيق الصلة بالشعب؛ لأنه

يتعلق بالشعب، والحكم فيه للشعب، فهو وصف القوة الوحيدة التي تسيّر القوم إلى الحرب أو تنجح بهم إلى السلم، والشعب لا يؤثر فيه غير الكلام.

أما غدة الخطيب السياسي:

فأولاً: يجب عليه أن يدرس الموضوع دراسة استيعاب وتعمق، خصوصاً إذا خطب في البرلمان؛ لأن السامعين كلهم أو بعضهم على علم بالمسائل التي يخطب فيها، وقد يكون بعضهم أَعز من الخطيب علناً، وعليه أن يكون إنذاراً لجانحة المجلس الداخلية، ولشؤون الدولة، ولنظام المجتمع.

ثانياً: أن يدرس نفسية السامعين ليعرف المنافذ إلى مشاعرهم، والطريقة المثلى لاستئناسهم وإقناعهم.

ثالثاً: أن يكون سريع الخاطر حاضر البديهة، قديراً على الرد في مهارة ولباقة وإفهام، إذا فاجأه سامع بسؤال، أو معارضة، أو مقاطعة، قالت سيدة لخطيب من غير حزبها وهو مسترسل في الخطابة قالت له: لو كنت زوجي لسقيتك السم؛ فقال لها على البديهة: ولو كنت زوجتي لشربت السم من يدك راضياً.

رابعاً: أن يكون حار العاطفة معتقداً ما يقول ومقتنفاً به؛ لينقل حماسه إلى السامعين، فإن الكلام إذا صدر من القلب وصل إلى القلب.

خامساً: أن يكون قديراً على تنفيذ آراء خصمه بالأدلة، وأن يبتعد في تنفيذه عن المسائل الشخصية، ويصرف إلى الموضوع نفسه فبيّن ما في آرائه من الخير للأمة، وما في آراء خصمه من الضرر، ويهذه الغدة بَهْر مصطفي كامل، وسَحَر سعد زغلول، وأثر ميرابو ووليم بد، وهم جميعاً لا سلاح لهم أقوى تأثيراً في النفوس من الكلام.

أما خصائص أسلوبها، فنقول:

أولاً: تعتمد على الخيال لإثارة العاطفة، فالخطيب في هذا النوع شاعرٌ حريصٌ على الإجتذاب والاختلاب بما يجلو من الصور، وبما يعقد من الموازات، وبما يرسم من آمال، وهو شديد الحاجة إلى هذا في الحفلات الانتخابية ليهز سامعيه، ويستميلهم إلى جانبه، فهم - كما قال جوستاف لوبون - كلما تذكروا وعود الخطيب بعد نجاحه في الانتخابات، أو سألوه عن البرنامج الإصلاحية الذي عدهم به.

ثانياً: تتنوع أساليبها الرائعة من شدة إلى لين، ومن جد إلى هزل، ومن إخبار إلى استفهام، ومن تسليم إلى إنكار... إلى آخره.

ثالثاً: اللباقة في التعبير بحيث تؤدي الجملة ما يريد السياسي، فقد تكون صريحة لا التواء فيها، وقد تكون مبهمه كما في بعض التصريحات السياسية.

رابعاً: الاستشهاد بنصوص القوانين والمعاهدات وتصريحات السياسة إذا عرض الخطيب لتصرف سياسي ذي صلة بالقانون، وكثيراً ما يحدث هذا في البرلمان، وفي هيئة الأمم المتحدة، وفي مجلس الأمن، والاقتياس من مآثر الكلام الرائع ذي السلطان على النفوس كاية كريمة، أو حديث شريف، أو بيت طائر، أو مثل سائر.

ولنضرب مثلاً على هذه الخطابة السياسية، فنذكر منها : خطب الخلفاء حين توليتهم، والولاة والعمال حينما يعهد إليهم بالولاية لبيّنوا للناس سبب استئناسهم، أو يبشروهم بعود، أو يسكنوا من ثورة ويخمدوا من فتنة، ولعل أول خطبة من هذا النوع هي خطبة أبي بكر بعد بيعته، التي قال فيها:

"أيها الناس إنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإني رأيتوني على حقٍّ فأعيبوني، وإن رأيتوني على باطلٍ فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، إلا أن أوقاكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

٣- الخطابة القضائية:

النوع الثاني: الخطابة القضائية، ونبدأ بتعريفها فنقول: هي التي تلقى في المحاكم سواء كان الملقى ممثل النيابة أم المحامي عن المتهم، وهي قديمة العهد عند اليونان والرومان، وكانت لها أصول تغاير ما عندنا، أما غيتها والغرض منها فإن الغرض منها تمييز الحق من الباطل، والفصل في المنازعات، ومساعدة العدالة على القصاص من الجاني، وتبرئة المتهم البويء، وحماية المجتمع من الجريمة؛ ولذلك يجب أن يتعاون القاضي والنائب، والمحامي على إحقاق الحق ونصرة المظلوم، ومحاربة الجرائم، ومن الباطل أن يحترف بها بعض المحامين للاستغلال، وكسب المال، وذلك بنتيجة المجرم الأتم بقوة البيان، وفصاحة المنطق، ودلاقة اللسان، وهم يعلمون أنه أئيم، ولكنهم يبتدون الحيل لإفلاته بدعوى أنه لم يجرم على أنهم في حلٍّ من أن يحاولوا تخفيف العقوبة ببيان دوافع الجريمة وظروفها وعللها.

ولخطورة الخطابة القضائية نظر إليها القدماء نظرة فيه وجل وتردد، فمثلاً كان قدماء المصريين في بعض عصورهم يقيدون المرافعة بأن تكون مكتوبة، مخافة أن تتأثر العدالة بخلاصة الخطابة، وتبين اليونان أثر مرافعاتهم فسُنوا القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل المثيرة للوجدان، وبالغوا في ذلك حتى عينوا رجلاً يقطع المحامي أو يسكته إذا رأى يحاول إثارة العاطفة، أما الرومان فقد تركوا الدفاع حرّاً يقول ما يشاء ثقة بالقضاء، واعتماداً على صراحة القانون ووضوحه، وهذا هو النظام المتبع في العالم اليوم، وإذا كان بعض القضاة يوجبون الحكم مدة بعد سماع المرافعات، فإنما يفعلون ذلك ليدرسوا ويوازنوا أقوال الدفاع بأقوال الاتهام، وهم بنجوة من تأثير هؤلاء هؤلاء.

٤- الخطابة الحفلية:

ثالثاً: الخطابة الحفلية، أولاً: موضوعها هي الخطب التي تُلقى في المحافل لتكريم أو تأبين، أو في تهنئة بنعمة خاصة أو عامة، أو في علاج مشكلة اجتماعية، وهذا النوع يكاد يكون موقوفاً سماعه على الخاصة وأنصاف المتفقين، فقلما يسمعه العامة؛ ولهذا

رأى "شيشرون" أنه أصعب الأنواع كلها؛ لأن السامعين من الطبقة الممتازة، فلا يستطيع الخطيب أن يلقي الكلام بغير تروية فيه وتجويد.

أما خصائصها:

فأولاً: يحسن أن تكون في جملتها واضحة الأفكار، سهلة التعبير، طليقة رقيقة معتمدة على الوسائل الخطابية وبعض المنطق، ولا تكفي الوسائل الخطابية وحدها؛ لأن الخطبة تستشر وتقرأ، ولا تجزي الأدلة المنطقية؛ لأن هذا النوع في حاجة إلى فن الأدب، والفكاهة الحلوة، والأسلوب الرشيق.

ثانياً: على الخطيب أن يصدق في قوله، فلا ينسب للمكرم أو المؤين محامد ليست من خلده، وأن يقصد في شأنه، فلا يكيل المدح جزافاً، وأن يتخذ خطبته وسيلة لتوجيه السامعين إلى التحلي بصفات النبيل التي من أجلها يكرم المحتفل به، أو يؤين المتوفى.

ثالثاً: وأمام الخطباء ثلاثة طرق في منهج التكريم والتأبين: أن يذكروا تاريخ المحتفل به، وما بر به من أحداث من صغره، ويشفوعوا ذلك بملاحظاتهم، وتعليقهم على بعض مواقفه، أو أن يدرسوا قيمة المحتفل به، وأثره في أمته ومميزاته، وقد يجمعون بين الطريقتين إذا انفسح لهم الزمن، ولكن المنهج الحديث أن يتركوا تفاصيل تاريخ الحياة إلى الجرائد والمجلات؛ لأن سردها ممل لا يستثير العواطف، فالخطيب الآن تدور خطبته حول بيان نواحي العظمة في المحتفل به وصفاته التي تميزه، ومكانته في التاريخ بين أمثاله، والدروس التي تستفيدها الأمة من عظمتها، وذلك يحتاج إلى مهارة في تحليل الشخصية، ولباقة في الموازنة بين المزايا والعيوب، وتقدير المحتفل به تقديرًا عامًا.

والخطابة الحفلية أنواع:

أولاً: خطبة التكريم، والمديح:

وهي التي تقال ثناء على عظيم أو ذي فضل، ومهمة الخطيب أن يبرز سمات عظمة المكرم وفضله، والفضائل أنواع شتى، منها: العدالة، والشجاعة، والمروءة، والعفة، والسخاء، والعظمة، والتسامح، وصدق الحس، والحكمة، وكبريات الفضائل ما كانت أكثر نفعاً للناس؛ لأن الفضيلة هي القوة التي تستطيع أن تُمدنا بخيرات كثيرة؛ ولذلك تعلق العدالة والشجاعة سائر الفضائل؛ لأن العدالة تؤثر تأثيراً كبيراً في وقت الحرب، ويأتي بعد هاتين الفضيلتين الكرم؛ لأن الكرماء يعطون بلا حساب، ولا يفتكرون في موارد الثورة، ولا يجادلون فيها غيرهم، بينما يريد غيرهم المزيد منها، وقد عرّف أرسطو كل فضيلة من هذه الفضائل.

ثم قال: وليس من الصعب أن يفهم الإنسان ما وراء هذه الفضائل، فمن الواضح أن كل ما ينشأ عن الفضيلة جميل، ثم يتعمق الخطيب في نظريته إلى الجميل من الأعمال فيقرر أن الأشياء التي يكافأ عليها بالكرامة وحدها خير مما يجازى عليه بالمال، وأن كل ما عمل بدافع من الإخلاص المجرد عن المنفعة الشخصية جميل يستحق المدح، والأشياء التي تُقدّم لخير الوطن في غير رعاية للمصلحة الذاتية جميلة، والأشياء المفيدة بطبيعته وليست مفيدة لمن قام بها جميلة؛ إذ لو كانت مفيدة له لخذ مدفوعاً إليها بدافع من الدوافع الذاتية، وعلى الخطيب المكرم أن يظهر ممدوحه مختاراً لما قام به من جلال الأعمال مريداً لها، وأنه كثيراً ما قام بأمثالها.

وخطبة المدح في حاجة إلى إطناب، وتفصيل كأن يذكر الخطيب أن الممدوح أول من قام بهذا العمل الجليل، أو فكر في هذا الصنيع، أو أنه الوحيد الذي قام به، أو أن قليلاً من الناس عملوا مثل ما عمل، أو أنه تفوق على من أشبهوه في عمله، وكذلك يوضح الظروف والملايسات التي أحاطت بالعمل الجليل الذي قام به المكرم، والإطناب مستحب في خطب التكريم؛ لأن التكريم يتناول الإشادة بفضائل يشترك الناس في تقديرها من الوجهة الخلقية، فليس أمام الخطيب إلا أن يفصلها ويحملها، ويطلب في تحلية المكرم بها، وليس من المستحب أن يتعرض الخطيب لشيء آخر غير الفضائل كثناء المكرم، أو مآثر أبائه، إلا تبعا لمميزاته الخلقية والنفسية، كأن يثبت عراقه نسبة ليوكد أن عظمتها تنمى في أصوله، وأنه نبئت في تربة مخصبة، أو عاش في جوٍّ ينمي العظمة ويغذيها، ثم يعرض لصفاته المكتسبة، وقد يتعرض الخطيب للبيئة التي ولّد فيها المكرم فيعرج على الحالة السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية التي عاصرت مولده ونشأته.

أما النوع الثاني من الخطب الحفلية: خطبة التأبين:

وهي الخطبة التي تلقى على قبر الراحل العظيم أو المتوفى العزيز، أو في حفل تأبينه، أو في ذكرى وفاته، فيبين الخطيب عظم الفجيعة فيه، ويعدد مناقبه، ويجلي آثاره، ويواسي آله وأحبابه، وقد عرفها اليونان منذ زمن قديم، وذكرها المؤرخ الكبير "توسيديد" في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانوا يلقونها في محافل رسمية لتأبين شهداء الوطنية، وكذلك مارسها الرومان، ووردت منها نصوص منذ القرن السادس قبل الميلاد، والمتبع أن يبدأ الخطيب خطبته بتصوير الفاجعة والأسى والحسرة، كما قال عبد الخالق ثروت في تأبين سعد زغلول قال: "أيها السادة في هذا الحشد الذي يريد كل فرد فيه أن يؤدي حقّ فقيدنا العظيم عليه وعلى البلاد، إما باللوحة الصامتة والذكرى الباقية، وإما بالزفريات يرسلها كلمات، وبحياة الفقيد يحملها مناقب وعظمت أردت أن يكون لي نصيب في الوداع الناطق للراحل الكريم، ولكن سعداً ليس كغيره من الرجال، فلكل عظيم ناحية من العظمة، ولسعد منها نواح متعددة، والعظيم يملاً فراغاً في جانب من الحياة، وسعد قد شغل الحياة المصرية عامة، فقد اجتمع فيه تاريخ مصر الحديث، وانتهت إليه نهضتها الكبرى، فلا غرو إذا جلّت مصيبتنا في فقده، وكثرت وجوه القول، وتعددت شعاب الذكرى فيه " ثم يعرض تاريخ الفقيد، ويشيد بما كان له من جهاد، أو إصلاح، أو نبيل، أو يحلل شخصيته ويبرز نواحي عظمته، ويضرب الأمثال من تاريخه وحوادثه، ثم يشارك الخطيب آل الفقيد

في فيجيتهم ويعزيهم ويواسيهم، بأن عظمة الفقيه باقية فيهم وأن منهم خلفاء له، ثم يوجه السامعين بلباقة إلى الاقتداء بالفقيه.

وقد يختم الخطيب بكلمة يتوجه بها إلى روح الفقيه يدعو له بالثواب، ويضمنه على أن من خلفه حريصون على تعاليمه، قوامون على رعاية ما كان يرعى، ومن ذلك مناجاة عبد الخالق ثروت لسعد زغول في خطبة تأييده بقوله: "تم هادئاً مطمئناً، فإن البذر الذي بذرته من خلال حسنة، ودعوة صالحة سيوتى ثمره إن شاء الله تعالى.

النوع الثالث من أنواع الخطبة الحلقية: الخطبة الاجتماعية:

والخطبة الاجتماعية هي الخطبة التي تعرض لدراسة مشكلة من مشكلات المجتمع، فتبرز العيوب وأسبابها، وتطرح لها، وإقامة المستشفيات، وتنظيم الخطبة، وبعضها لا تنتظمه، فإذا اعتمد الخطيب على الدراسة وحدها ولم يصف إليها الإلقاء الخطابي، فهو محاضر لا خطيب، وإذا أضاف إلى الدراسة إثارة المشاعر بلفظ الخطابي، وتصويره الجميل، وتخيله الساحر، فهو خطيب لا محاضر.

ولنذكر بعض الأمثلة على هذا النوع من الخطب الاجتماعية: خطب مصطفى كامل في حفل افتتاح مدرسة الشوريحي بكم حمادة سنة ألف وتسعمائة وواحد من الميلاء، فتحدث عن أثر العلم والتعليم في إنفاض الأمم، فقال:

"ليس في تشييد المدارس، وإقامة المستشفيات، والتنافس في الخيرات النافعة شيء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفي تهمة الموت الأدبي عن المصريين، قال القائلون ورد المرردون: إن المصريون اتفقوا على أن يتفقوا، وصارت هذه الكلمة في الأمة، وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة سوء، واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون: هل هي إلى المجد، والارتقاء سائرة، أو إلى الموت والفناء هاوية؟ فأجيبها بما من رفعت للعلم والوطن منازراً عالياً، أجيبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية "العروة الوثقى" في الإسكندرية، وجمعية "المساعي المشكورة" في المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء القطر تنادي بأن في الأمة رجالاً أحياء ذوي همم عالية وعزائم صادقة، أجيبهم بأن هذه المدارس الأهلية التي أنشئت في الديار بهم الأفراد هي الحجج الدامغة على حياة الأمة، ووجود من يهتم بأمر تقدمها ونهضتها".

ومن خطبة في الإخاء للكاتبة مي زيادة في إحدى الجمعيات الخيرية سنة ألف وتسعمائة وثمانية عشرة:

"إن كلمة الإخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا ليست ابنة اليوم فحسب، بل ابنة جميع العصور، وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان أن بينه وبين الآخرين اشتراكاً في فكرة أو عاطفة أو منفعة، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولاً، يجب أن يتألم المرء ليُدرك عذوبة الحنان، ويجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه، يجب أن يرى حقوقه مهضوم.ة يزدري بها ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها، يجب أن يرى نفسه وحيداً ملتاعاً دامي الجراح ليعرف نفسه أولاً، ثم يعرف غيره، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاقد، كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان".

وقال محمد توفيق دياب في خطبة له - موضوعها: الشباب المصري خيوط الحاضر، ونسيج المستقبل:-

"لا بد من أن يؤمنوا، لا رجاء في أمة إلا أن يكون لها إيمان، ولا في شباب أمة إلا أن يكونوا مؤمنين، أما الإيمان في الإنسان فليس طبيعة ولا غريزة، ولكنه كسب عن تقليد، أو كسب عن تفكير، فإذا رسخ نتجت عنه البواعث الملهمة، وليس المهم كيف تؤمن؟ وإنما المهم أن تؤمن، نعم، ولكن تؤمن بماذا؟ تؤمن بشيء أنت دونه، وتريد أن تسمو إليه، تؤمن بقوة تستعين بها على ضعفك، تؤمن بباعث عظيم من بواعث الأمل وبواعث العمل، تؤمن بمنثل من الأمثلة العليا ترديد لنفسك فرداً ولأمتك جماعة، تؤمن بمنثل عال من الشجاعة يصونك عن التذلل والخور، تؤمن بمنثل عالٍ من الكرامة يصونك عن كل مهين وخسيس.

أما أنا فواحد من الذين يؤمنون بالقوة العظمى التي تجمع الصفات الحسنى في اسم الله تعالى، وإيمانه به إيمان الضعيف بالقوي، ول كني حين أستمد منه القوة أصحك أنني ارتفعت فوق المناعم والمتاعب، وفوق الفقر والفتن، وفوق الإخفاق والنجاح، بل فوق الموت والحياة؛ لأنني ركنت إلى المعد الباقي، ولقد أكون في المآزق الضنك أو في الليلة الشادة فألقي بضعفي بين أحضان تلك القوة، فإذا بي قد أوتيت همة ج ديدة، وقدرة جديدة على المجادلة والثبات، أجايني هاتف من قرارة روجي : لا بد لمصر من مؤمنين بالله وبالوطن، قل لهم: إن ربكم عن إيمانكم به جدٌ غني.

أما مصر فإلى إيمانكم بها جدٌ فقيرة، قل لهم : إن قلوبكم إذا خلّت من ذكر الله تعالى، فإن ذكريه في الأرض والسماء ل يس يحصيه العدد ولو طال، فأما مصر فلو خلّت قلوب المصريين من ذكرها، فمن ذا يذكرها سوى المصريين، قل لهم : ليس مؤمناً بالله من لا يؤمن بالوطن، أليست مصر كبرى أنعمه عليكم أجرى فيها كثره، وأسبغ عليها رزقه، وكساه من جماله، وجعل لها آية الشوق في الأولين يلحق بها المتخلفون، وامتحنها في الحاضرين بمحنة التخلف؛ لتنهض فتلحق السابقين؟ قل لهم : إن من جحد نعمته، وعق كنانته، وانخذها سخرية ولعباً، فهو بريه من الساخرين . لإنشاء دار أوممة تساعد المرأة الموظفة، أو إنشاء مدرسة لتربية الحاضنات وتدريبهن، أو إنشاء دار لرعاية المسنين، أو إنشاء نادٍ رياضيّ يشغل وقت الشباب، ويربي أجسامهم وغرائرهم، أو تكوين شركة لإنتاج شيء يرى أن مجتمعه في حاجة إليه، أو لزراعة رقعة من الأرض، وهكذا".

وكل هذه إصلاحات اجتماعية، وهذه الأعمال كثيرة ونشطة جداً في البلاد الراقية، وقد كان لها أيضاً نشاطاً في مصر، ولكن قيدها النظام الاشتراكي الذي وضع كل شيء في يد الحكومة، وخطيب المشروع الاجتماعي كأى خطيب آخر لا بد له من درس موضوعه درساً عميقاً يجعله يدرك غايته وفوائده، ويدرك ما يستدعيه نظامه وقيامه من مشاق، وبهذا يستطيع أن يدفع آراء معارضية، وهذه الخطبة من حيث ما تجلبه من منافع تتصل بالخطبة الدينية، ولكي ينجح الخطيب في موقفه هذا يتبع هذه الخطوات:

أولاً: يقدم لمشروعه بمقدمة مناسبة.

ثانياً: يعرض مزاييا مشروعه وفوائده، وعليه أن يتوسع في هذا الجانب ويستقصيه؛ ليزي أن نفعه يعم الفقراء والأغنياء جميعاً، ويرفع مستوى مجتمعه ويسد نقصاً فيه، فهذا هو موضوع الخطبة الذي هو أهم أجزائها.

ثالثاً: عليه أن يذكر أمثلة؛ لهذا المشروع ونظائر له من مشروعات أخرى كانت رغم ما كلفت من من مشقة وجهد ذات نفع عظيم تُنسى ثمرته كل ما يُذل فيه من مشقات.

رابعاً: إعداد العبارات، وتنسيق الأسلوب، والاستشهاد بالأحداث والأحداث وآيات القرآن الكريم وأبيات الشعر مما يثير عواطف السامعين، ويهيئهم للإقبال على ما يدعو له الخطيب، ولكن في جانب الاستشهاد بالشعر لا يجوز الإسراف والإكثار عكس الآيات

القرآنية والأحاديث النبوية؛ لأن إدخال الموضوع الاجتماعي في الدين يجعل المشارك فيه متطعاً إلى مثوبة الله - عز وجل- وإلى درج نفسه في سلسلة الصالحين ورجال الإصلاح.

خامساً: من المفيد جداً أن يستأنس الخطيب بأعمال العظماء والمشهورين في ميدان الإصلاح الاجتماعي، وما أنشؤوا من مشروعات كانت في بدايتها صغيرة، ثم نمت

وصارت ذات نفع عظيم، وبقيت تحمل ذكراهم، وتُذكر الناس بأبائهم.

موضوع الخطبة الاجتماعية لصيقٌ بالخطبة الدينية، ومما يجب أن يهتم به الواعظ الإسلامي، وهو في جلته موضوع إنشائي يحتاج إلى البحث عن عناصر جيدة، وترتيبها ترتيباً مناسباً يفضي إلى نتائج ها، ومن أمثلة ذلك إذا أراد خطيب اجتماعي أن يدعو

مستمعيه للتبرع لملجأ أيتام مثلًا فماداً يمكنه أن يقول: وكيف يواجه موضوعه؟ نقول: يبدأ أولاً بالحديث عن الملجأ الذي يريد التحدث عنه فيصف ميناه ولون التعليم

الذي يقدم فيه، ويصف حال الأطفال الصحية، والأدب الخلقي والسلوكي الذي هم عليه، ثم يوازن بينهم وبين الآخرين الذين تجرفهم تيارات الفساد فسوء صحتهم وأخلاقهم، ثم ينتهي من هذا إلى طلب معاونة الملجأ، وفي حال المعونة لا بد أن يُشعر الخطيب سامعيه

بما يعود عليهم من الفوائد العامة والخاصة، كان يُذكرهم بأن هؤلاء الأي تام ربما كانوا أبناء يهود صليبيين، وربما كان أبائهم من مسوري الحال، ولكن الزمن أخنى عليهم، وكل واحد منا عرضة لهذه الحال، ولا يضمن أحد مصير أولاده، فليساعد هؤلاء ليحفظ الله

أولاده ويرعاهم، وهذه النقطة الأخيرة يمكن التوسع فيها فتكون أكثر مساساً بمشاعر السامعين.

في مثل هذه المواقف بوجه عامٌ بوجه الخطيب انتباه سامعيه إلى أثر الأعمال التي يقوم بها الأهلون، ولا تعتمد على معونات الحكومة، إن الغربيين يبنون حضارتهم وأعمالهم

الهامة بأيدي الشعوب، بينما يعيش الشرقيون عالة على حكوماتهم، إن الشعب الحي الناضج يسبق حكومته ويقودها، أما الشعب المتأخر فإنه يرهق حكومته بتواكله، ويشغلها

بما يطلب منها من أعمالها الأخرى.

لقد تقدمت مصر في بعض المواقف، إذ اعتمدت على جهود الشعب فنجحت نجاحاً كبيراً، ولكنها ما لبثت أن تركت عملها للحكومة، كانت جامعة القاهرة أول جامعة أنشئت في الشرق الأوسط، وكانت تُسمى : الجامعة المصرية، وقد نشأت جامعة أهلية لا علاقة

للحكومة بها، وأدت رسالة التعليم الجامعي على وجه مشكور، ثم سلمت للحكومة، وقام طلعت حرب بإنشاء بنك مصر بفروعه العديد وشركاته القيمة النافعة، ثم سلم كل ذلك للحكومة، فدل ذلك وأمثاله على فقر عزانما وقلوبنا، وهذا لا يحدث في البلاد

الأوروبية، وقد أثمرت هذه الجهود الشجعية على أي حال، ولا يليق بنا أن نتراخى أو نتواني في أعمالنا النافعة أو نستهنين بها، فإن وراء العمل الصغير نفعٌ كبيراً، كانت

الجمعية الخيرية الإسلامية جمعية متواضعة، ثم أنشأت من المدارس النافعة ذات المناهج الإسلامية ما كان مثلاً يُحتذى، ومنها اشتقت جمعية "العروة الوثقى"، وأقامت عددًا

من المدارس، وقامت بأعمال ثقافية ودينية نفعها لا يخفى.

٢ - الخطابة العسكرية أو الحربية:

نتنقل الآن إلى الحديث عن النوع الرابع من أنواع الخطابة، وهو الخطابة العسكرية أو الحربية، فالخطب العسكرية أو الحربية هي التي يلقيها قواد الجيوش قبل الحرب يحضون

فيها الجند على قتال الأعداء، والغاية منها إنهاء هم الجنود، وإزكاء نار الحماسة فيهم، وإثارة النخوة والحمية والإقدام، وتهوين الموت، وتحسين التضحية في سبيل

الشرف والكرامة، وخطرها العظيم فكثيراً ما يتوقف عليها إحرار النصر، فإن الجندي إذا تحمس بقول الرئيس نشط للقتال، وجاهد العدو غير مبال بالخطر حتى يفوز بإحدى

الحسينيين: الظفر والغنيمة، أو الموت والشهادة، وكثيرٌ ما لجأ القادة إلى الكلمة يشعلون بها الجنود حماسة إلى الاستبسال، وكثيرٌ ما كان الخطباء يشدون أزر الجيش المقاتل بما

يلفون من خطب، ويوظفون حماسة الشعب ليجود بالدماء والأموال.

ولئن كانت الخطب السابقة مجالاً للتخضير والتفتيح والتروي، فإن الخطابة الحربية كثيراً ما تُستهل لوقتها؛ إذ يفاجئ الزمن القائد فينتزع م ن بديهته المسعفة خطبة مرتجلة على

أنه أحياناً يُعدها لظرف يتوقعه، ومهمته شاق؛ لأنه لا يستطيع أن يُسمع الجيش كله؛ ولذلك جرت العادة الآن أن تكتب الخطبة وتوزع على الجند، والغرض منها - كما قلنا: -

بعث العزيمة في نفوس الجند، وإذكاء حماسهم، وتبشيرهم بالنصر، وبث ال ثقة فيهم،

وتهوين الموت لهم، والقائد يتخير الجمل القوية القصار، ويلجأ إلى الخيال كثيرًا يستثير به عظمة الماضي والأمل في الحاضر، ويمني بالفوز والمجد، وينفر من التخاذل والالتكسار، والواجب في الخطب العسكرية أمران:

الأول: أن يستنهض همة الجندي بأن يذكره بأن الشهيد لا يقاسي من آلام نزع الروح ما يقاسيه غيره، بل ينتقل مباشرة بغير حساب إلى أعلى درجات الجنة، حيث تكون أرواح الشهداء في جوف طيور خضر تسبح في رياض الجنة، ثم تأتي إلى قتاديل معلقة في العرش، ثم يذكره بأن كل إنسان سيموت عاجلاً أو آجلاً، والشهيد وحده يتميز بأنه يظل حياً يرزق، لكن في الجنة بدلًا من الدنيا.

الثاني: أنه يبعث إليه العدو، ويملا قلبه غضبًا وغيظًا وحقًا عليه ببيان جوره وطعمه في الاحتلال، وحب السيادة على الشعوب، ثم يذل الأمر له ببيان ضعف قوته، وسهولة الانتصار عليه، والفوز بعده وذخائره بصدق الحملة، والاستماتة في القتال، والثبات في وجه العدو ثقةً بالله تعالى، وأملًا في النجاح والظفر.

ولهذه الخطب ثلاث صفات:

الصفة الأولى: أن يلقيها الخطيب بحماس عظيم وانفعال شديد؛ ليجيز في نفوس السامعين ما في نفسه من الشجاعة والحمية والنشاط.

أما الصفة الثانية فهي: أن تكون واضحة بذكرها الجند بسهولة.

أما الصفة الثالثة فهي: أن تكون موجزة؛ لأن الحرب لا تدع مجالاً واسعاً للإطالة.

ويحسن الآن أن نذكر أمثلة لهذا النوع من الخطبة، فقد أثر عن العرب والمسلمين وغيرهم فيض من هذه الخطب، منها: خطبة هاني بن قبيصة الـشيباني في موقعة "ذي قار" يحرض قومه على الفرس، يقول: "يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، والمنية ولا الدنيا، استقبل الموت خير من استبداره، الطعن في ثغر النحر أكرم منه في الأعجاز والظهور، قاتلوا فما للمنيا من يد".

وكتب التاريخ والأدب حافلة بخطب القواد والساسة، وبخاصة في فترات الصراع الحزبي بين الأمويين، والشيعة، والخوارج، والزيبريين، وفي فترات الفتوح الإسلامية.

ومن أعظم الخطب الحربية: الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد قبل فتح الأندلس قال: "أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أصعب من الأيتام في مآذب اللئام، وقد استقبلكم

عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ربحكم، وتعوذت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أرمك بمنازرة هذه الطاغية، فقد ألتقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن

انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سم حتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوى، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيه النفوس أربأ فيها بنفسي، واعلموا أنكم صيرتم على الأشق قليلًا استمتعتم بالألف طويلاً، فلا ترعبوا بأنفسكم عن نفسي فيما

حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الجسان من بنات اليونان الرفلات في الرثر والمرجان، والخلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزابًا،

ورضيك لملوك هذه الجزيرة أضرًا وأختابًا، ثمة منه بارتياحكم للطعان، وإسماحكم بمجالد الأبطال والفرسان، ليكون حظهم منكم ثواب الله تعالى على إعلاء كلمته، وإظهار

دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصًا لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنيادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم "الذريق" -

وهذا اسمه - فقاتله - إن شاء الله - فأحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولن يعزكم بطلق عاقلٌ تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فأخلفوني في عزمي هذه، واحلموا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم

من بعده يخذلون".

وهذه الخطبة ثرية بخصائص الخطبة الحربية من ناحية التعبير، والتصوير، والاستمالة، وفيها حفرٌ للعزائم بوسائل شتى، وتشهير بالنصر والقتانم، ودعوة للجهاد ابتغاء النواب.

ومن الخطب العسكرية أو الحربية كذلك: ما خطب ابن نباتة الفارقي في تأييد سيف الدولة الحمداني في حربه للروم كقوله:

"من وصل جبل الله أوصله، ومن قعد عن نصرته خذله، فانفروا رحمكم الله كما أرمك إلى جهاد عدوه، واغلوه بالمغار عليه ق بل مغاره عليكم وعلوه، وانتهزوا الفرصة فيه بتشاغله قبل خلو، وانهضوا إليه قبل نهوضه إليكم ودونه، فإنكم إن قدمتم عن جهاده نهض إليكم، وإن لم تنصروا الله نصره عليكم، كدابه فيمن رأيتموه

من أهل الثغور الذين أحل بهم دواهي الأمور، ولقد كانوا أكثر منكم جهادًا، وأفر عددًا واستعدادًا".

ومن الخطب الحربية القوية: خطبة نابليون في حملته على إيطاليا يقول فيها: "أيها الجنود لا قوت لكم ولا كساء، الحكومة مدينة لكم بالكثير، ولا تستطيع أن تعطيكم شيئًا، وإن في صبركم وشجاعتكم لشرفًا لكم، ولكن ليس من ورائهما ربح ولا مجد، ساقوكم إلى أخصب سهول العالم، ستجدون مدنًا كبيرة وضياعًا غنية، ستجدون الشرف والمال

والمجد، أيها الجنود اتعوزكم الشجاعة".

وهذه الخطبة شبيهة بخطبة طارق بن زياد في بعث الحماسة، وبت الأمل في النصر، والتبشير بالغنى والمجد.

٣ - الخطبة الدينية:

نأتي الآن إلى الحديث عن النوع الخامس من أنواع الخطبة، وهي الخطبة الدينية، ونقول:

إن الخطبة الدينية هي التي تعتمد على تعاليم الدين، أو تلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطبة المنبرية التي تلقى في الجمع، والأعياد، ويوم الحج الأكبر، وعند صلاة الاستسقاء، إلى آخره، تلك الأمور التي بين الدين أن لها خطبة، كما تشمل المواعظ، والخطب التي تلقى في المجتمعات الدينية أياً كانت، ففي الجمعيات الدينية، وسراقات العزاء، ومجالس الصلح، وما إليها تلقى خطب تستند في معانيها وأغراضها إلى الدين، ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها آيات القرآن الكريم والحديث الشريف.

فهذه كلها خطب دينية، وأهمها جميعاً هي خطبة الجمعة لتكرارها، ولأنها فرض لا تصح الصلاة إلا بها، والخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعاً، فإذا استهان بها الخطيب وجعلها أمرًا تقليدياً هانت وسقطت، وأصبحت عديمة الفائدة، ولا تزهدهم الخطبة الدينية

وتنفر إلا في عصور الحرية شأنتها في ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرى، فمهمة الخطيب الديني تتوقف على جانبين: بيان حكم الشرع في أمر من الأمور هل هو جائز أو ممنوع؛ ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه، وكلا الجانبين كثيرًا ما يكون مضادًا لما يريد الحاكم، فيجرح الخطيب عن شرعه أو طلب

تطبيقه، وهذا سبب تأخر الخطبة في عصور الاحتلال الأجنبي والاضطهاد.

ومجال الخطبة الإسلامية أوسع من مجال الخطبة في الديانات الأخرى؛ لأن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة، وكل عمل صالح أيًا كان نوعه مما يدعو له الإسلام ويحث عليه، وكل عمل ضارٌ ينهى عنه الإسلام ويحذر من الوقوع فيه، وهذا مما وسع موضوعات

الخطبة الإسلامية.

وفي البلاد الأروبية يتمتع الخطيب الديني بحرية واسعة جدًا، ولكن الكناس مع عدم كثرتها كثرة فاشية قلما تمتلئ مقاعدها أو تزحم بروادها، وفي لندن يزدحم الناس حول الخطباء في الركن المخصص لهم في حديقة "هايدبارك"، ولكن لا يظفر القسيس إلا بعدد قليل جدًا من المستمعين، ويرجع ذلك إلى أن خطبتهم لا تعدو أن تكون أحاديث عن حياة

المسيح مأخوذة من الأناجيل، أو عرض قراءات من أعمال الرسل أو العهد القديم، وكل ذلك مما هو معروف، وسمع مرارًا، فهو لذلك لا يهز مشاعر السامعين، ورجل الدين مع هذا في كل البلاد الأروبية يظفر بإجلال واحترام لا يظفر بها سواه، والخطيب الإسلامي

الموفق في بلدنا الشرقية يظفر بمثل هذا التوقير وأكثر، كل ذلك لما فطرت عليه النفوس من حب الدين، واللجوء إلى الله تعالى في الشدائد، ولا يخلو إنسان من شدائد، والفترة الإنسانية تتجه إلى الخير وتحبه، وتجعل الحق وتكبره، حتى مرتكبي الذنوب والآثام يجلون

أهل الخير ويقدرتهم، ويذكرون أنهم أقل رتبة من الأبطال بسبب تولوهم بالمعصية، ولا يجولن بخاطرهم أن قراءة حد يث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو شرح آية قرآنية، أو ذكر حادث تاريخي ذي مغزى يمر على سامعيه من غير أن يترك في نفوسهم

أثرًا ما، ولكن هذا الأثر يختلف بين شخص وآخر.

والخطبة الدينية دائما ذات مغزى شريف، وأغراض سامية نبيلة؛ لأنها دائمة تلفت

الذهن إلى الجزاء الأخرى، وتنذر من الحساب على الأعمال، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى، فهي بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية، وتتسامى به إلى المعنويات، والخطبة السياسية تدور حول أعمال مادية بحثة من إنشاء مشروعات مثمرة، أو تنمية

الزراعة، وتنشيط التجارة، وما إلى ذلك.

والخطب القضائية تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته، وقل مثل ذلك في الخطب الأخرى، فهي جميعًا تدور حول أمور دنيوية، أما الخطبة الدينية فتشمل ذلك كله، ولكنها تربطه

بجزاء أخروي من الله تعالى، وهذا ما عبره عنه الشراح بقولهم: الخطبة الدينية تتجه بالإنسان إلى السماء حين تربطه الخطب الأخرى إلى الأرض، وتسمو به إلى المعنويات

حين تهبط به الخطب الأخرى إلى الماديات، والفرق بين الاتجاهين بعيدٌ وواسع جدًا.

ومع نبل الخطبة الدينية وأهميتها نجد أكثر الخطباء الدينين لا يدركون النجاح المنشود، ولا تترك خطبهم في نفوس السامعين أثرًا عميقًا، ومستمعو الخطب الديني يأتون إليه تلقائيًا؛ لأنهم مجبورون على أداء الصلاة طاعة لله تعالى، ولكن لضعف الخطبة وقلة

الاستفادة منها تجد معظم المصلين لا يحضرون إلى المسجد إلا بعد بداية الخطبة، والخطيب - وليس المصلون - هو المسئول عن هذا؛ ولذلك نجد مساجد معينة يهرع إليها السامعون في وقت مبكر، ومن أماكن بعيدة، ثم لا يسأمون سماع الخطبة حتى ولو طالت.

نأتي الآن إلى الحديث عن أسباب ضعف الخطبة الدينية، ونجمل أسباب ضعفها في هذه الأمور:

أولًا: بعد الخطبة عن حياة الناس وواقعهم، فخطيب المسجد يدور في محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار، وقد يحدث الناس عن أشياء بعيدة جدًا عن حياتهم ولا يتوقع أن يواجهوها، سمعت مرة خطيبًا في قرية ريفية يتحدث عن مضار الخمر، وعن ما ينشأ عنها من أمراض، وكيف تدرج الإسلام في تحريمها، هذا وسكان القرية لا خمور لديهم،

ولا يجدون أثمان طعامهم، وكان أولى لو نهى عن التدخين وشرح أضراره، وخطيب آخر في إحدى قرى الصعيد اختار لحديث الجمعة أخطار الرحلات إلى البلاد الأروبية، وما

يترلق فيه زوارها من فساد ومن أعمال لا يقرأها الإسلام، وليس بين مستمعيه من يرحل إلى بندر المحافظة، ومن حضر منه مرة إلى القاهرة يعتبر نفسه رحالة واسع التجوال، والخطبة بهذه الطريقة مضيعة للوقت بغير فائدة، ولا يجبر الناس على سماعها إلا

الواجب الديني.

ثانياً: تتعدد أغراض الخطبة، وهذا شأنٌ وفاشٌ في أكثر المساجد، تجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم، وير الوالدين، والرفق بالضعفاء، ومساعدة الفقراء، وحسن تربية الأطفال، وهكذا تكتظ الخطبة بعدد من الأغراض، وقليل من البحث والتحليل. ثالثاً: تكرر المعاني والشواهد، فالخطيب يذكر معاني وأحاديث معادة يذكرها في كل خطبة، وأكثرها يدور حول موضوعات معروفة للكثيرين، وهذا التكرار يذهب بأثر الآيات والأحاديث والنصائح، فلا تمس قلوب السامعين، ولا تحرك مشاعرهم. رابعاً: سوء إلقاء الخطبة، فكثيرٌ من خطباء المساجد من يلقي الخطبة بطريقة ضعيفة، ومن يلقيها بطريقة منغمة، ومن يلقيها بأسلوب رتيب يستوي فيه صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار، فهذا مما يصرف ذهن ال سامع عن متابعة الخطيب، ويضعف تأثير العظة في نفسه، ويوجهه عاملاً لا تزال خطبة المسجد تنهج منهجاً تقليدياً، ولا يزال خطيب المسجد بحاجة إلى استنارة واسعة، والخطبة الدينية في غير المسجد قد تكون أنجح وأفيد، فبين الجماعات الدينية تحررت الخطبة من المنهج التقليدي وواجهت موضوعات أشد مساساً بحياة الناس، وتناولت معانٍ موحية، وفتحت الأذهان على أفكار جديدة.

المراجع والمصادر

- ١- الفيومي، المصباح المنير، ٢٠٠٠/١ المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢١م.
- ٢- الأصفهاني، الراغب، المفردات، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٦٩.
- ٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ١٩٠٢/٥، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة ١٩٨٢م.
- ٤- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٣ هـ.
- ٥- الكفوي، أبو الياء، الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢م.
- ٦- التهانوي، محمد بن علي، كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، القاهرة ١٩٦٢.
- ٧- الشرنوبلي، أحمد محمد، الحكمة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، بحث منشور في حولية كلية أصول الدين القاهرة، جامعة الأزهر ٢٠٠٦م.
- ٨- القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- ٩- البيانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة: مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٠- موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن عبد الله حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح، طبعة دار الوسيلة، السعودية، ٢٠٠٤م.
- ١١- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩م.
- ١٢- الإمام الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوفية حسين محمود، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.
- ١٣- حسين عبد الرؤوف، فقه الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط أولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧.
- ١٤- حسين خطاب، ضوابط العمل الدعوي في مجالات: الموعظة، المجادلة، الحكم على الآخرين، ص ٦٩، ٧٢، ٧٩، ٨٥ مكتبة الأزهر الحديثة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- ١٥- اللحيان، عبد الله بن إبراهيم، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، مطابع الحميضي - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٦- زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب الإسكندرية، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
- ١٧- الشرنوبلي، أحمد محمد، موقف الإسلام من أهل الكتاب، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين القاهرة.